

يوم من أيام دمشق الخالدة

وفاة الامام ابن تيمية

في ٢٠ ذى القعدة سنة ٧٢٨ هـ

للأستاذ أحمد رمزي بك

تصل مصر الشام في سورية ولبنان

[في شهر أغسطس الماضي أم دمشق الأستاذ أحمد رمزي بك فصل مصر العام في سورية ولبنان ، فزار فيها زار قبر الامام ابن تيمية ، ووقف عليه مستحضراً سيرته ، مستذكراً نبوغه ، ثم كان من وحى هذه الوقفة الشاعرة هذا المقال القيم]

في سحر ذلك اليوم نى المؤذن بمنازة القلعة شيخ الإسلام ابن تيمية وتناقل نداء ذلك الحراس على أبراجها فأذاعته المآذن من الجوامع والمساجد الأخرى ، فأصبح الناس في اليوم التالي وقد سرى هذا النبا بينهم ، وغمرت المدينة موجة حزن وأسف عند ما سمعوا نبأ هذا الخطب الجسيم الذي أصابهم بفقدان العالم الإمام المجاهد التقي الحافظ الزاهد العابد القدوة شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس احمد بن تيمية .

وكان الشيخ محبوباً بالقلعة التي أمر نائبها بفتح أبوابها ، وجلس في حجرة الوفاة يتقبل المزين وقد اجتمع بها خلق من أصحاب الشيخ ورجال الدين وغيرهم من أعيان البلد . أما جماهير الشعب فقد أحاطت بالقلعة ووقدت عليها من أحياء الصالحية ومن جهات النواطة والرج بمد أن أقفلت المدينة أسواقها .

ويطلب المؤرخون في وصف ذلك اليوم وكيف تلقى الناس أخباره ، وكيف ساروا في جنازة الشيخ عشرات الآلاف ، وكيف اقتحموا باب القلعة ودخلوا زرافات على الشيخ يقبلون وجهه ، وكيف امتلأت أرجاء قلعة دمشق وضح الناس بالبكاء والنحيب عليه والثناء والدعاء والترحم له .

فقالوا إن يوم جنازة ابن تيمية كان يوماً مشهوداً لم يمثله دمشق في تاريخها ، إلا أن يكون ذلك في أيام بني أمية حينما كانت قلب العالم التمدنين .

ولما أريد الصلاة عليه بجامع أمية خفت الجماعات إليه حتى امتلأت الرحبات والصحن وجيء بالجند لحراسة الشمس ؛ ولما صلى

عليه صاح صائح يقول : « هكذا تكون جناز أهل السنة ! » وخرجت جنازته من باب الجامع إلى مقابر الصوفية مارة بباب الفراديس وباب النصر وباب الجابية والقوم حولها خاشعون .

من هذا الشيخ الذي ارتجت له الشام بأسرها ونعتة مآذن مصر ، وأقيمت له كبرى جناز أهل السنة بدمشق ، ورفعت الجماعات إلى مصاف الأبطال برغم كونه سجين السلطة الحاكمة ؟ ومن الذي ألقى الناس المناديل والمهائم على نمشه ؟ ومن كانت تحشاه الدولة في الشام ومصر ، ثم مات وعلى رأسه عمامة بيضاء بمذبات مفروزة وقد علا بعض رأسه الشيب ؟

من هذا الذي فاضت روحه وقد تمت شفته بالآية الكريمة : « إن المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر » فكانت نهاية ثمانين ختمة لكتاب الله بدأها عند دخوله المعتقل ، وبدأ الحادية والثمانين فأسلم الروح وهو يتلو هذه الآية الكريمة ؟

لا شك في أنه من أولئك الذين بذلوا أنفسهم في سبيل الله ، والدعوة إلى الله ، والعمل بما أمر به الله — هو صاحب دعوة قام بها مخلصاً وجهه لله وحده ، له مذهبه وآراؤه . ولنا نعرض لها فإن ما كتب فيها كثير ، والله الحمد ، وهو متداول ومعروف ، ولكننا نعرض لهذه الشخصية الإنسانية الفذة التي جمعت من الصفات والمزايا ما يضعها في مصاف عظماء الرجال من كل عصر كان ابن تيمية شخصية فيها من الإيمان والقوة والإخلاص والجرأة والصلابة في الحق ما يجعله عالماً وحده . كان ابن تيمية صاحب رسالة من أولئك الذين بعثوا لينشروا بين الناس تعاليم وأفكاراً ومبادئ تهدم القديم الرث البالي ، وتصور لهم المتناقضات السائدة في أوساطهم وتدعوهم إلى كلمة سواء ، ثم رسم لهم قياً جديدة أخذها الشيخ من كتاب الله وسنة رسوله وهدية والعودة إلى السلف الصالح الذي كانت ترتجف لمزاعه الدنيا . واتخذ له نبزاً لا يحميد عنه هو تصفية العقيدة وتوجيهها إلى التوحيد والخضوع للذات السرمدية الأحادية التي تسيطر على هذا الكون وتقوده إلى الخير الصرف

إن تعاليم ابن تيمية خالدة بين الناس ، وهي لا تزال تشغلهم وسوف تشغلهم في المستقبل القريب والبعيد ، ولكن شخصيته وعمله وبطلوته أمور لا تزال خافية على الكثيرين ، ولذلك سنحاول أن نعرض لبعض نواحيها . ويسرني أن أكون

قد أدبّت بعض الدّين لصاحبها ولمدينة (دمشق) التي ضمت رفاقه ، ولها في قلبي ونفسي أروع وأسمى مكان
ودمشق إذا افتخرت بتاريخها الخالد وأيامها الفرّ وآثارها التي نسيج من مصر وغيرها لرؤيتها ؛ وإذا افتخرت بدولها ورجالها وأبطالها ، فمن حقها أن تفخر بابنها البار الإمام ابن تيمية الذي عمّض حياته للموت من أجلها ، والذي جاهد أكل جهاد ، وذاق مرارة السجن ، وتحمل كيد الكائدين ، فهو جدير بأن تقام باسمه مدرسة ، أو ينشأ باسمه ميدان ، أو أن يفرغ لذكراه يوم أو بعض يوم

١ - ابن تيمية المجاهد المرابط ضد التتار

عوج وسط مجيغ الناس في دهش

من نبأة قد سرى في الخي ساريها

[من عمرية حافظ]

كانت سنة ٦٩٩ هجرية سنة مهولة على البلاد ، إذ قصد التتار تحت قيادة قازان الأراضي الشامية ، ولم يكن هناك بيبرس أو قلاوون ليحميها أو ليخلق من الهزيمة نصراً كما حدث قبل ذلك في عين جالوت أو صراج حمص^(١)

كان التتار يفتنون وهم على دين آبائهم ؛ أما هذا العام فقد جاءوا وامم سلطانهم محمود ، وهم يظهرون الإسلام ومهم المؤذن والقاضي والشيخ والإمام ، ليؤمهم في أوقات الصلاة . جاءوا إلى الشام ، وقد اختل أمر مصر والشام ، وانضم فريق من أمراء البلاد إليهم ، فسلمهم الجزء الشمال من سورية بغير قتال وصلوا النيك ، واحتلوا القطيفة ، وانكفأ جيش مصر والشام إلى البقاع وبمليك ، وفتحت دمشق أبوابها عدا قلمتها العتيقة التي أبت أن تستسلم

وكان ابن تيمية في التاسعة والثلاثين من عمره في حركة دأمة ، لا يستقر ولا يهدم ، لم يقبل أن تترك دمشق بغير أمن ، فذهب مع أعيان البلد وقابلوا عاهل التتار ، واحتج عليه قائلاً : « أنت تزعم أنك مسلم ، فلماذا أتيت إلينا غازياً وأنت عاهدت ففدرت ، وقلت فما وفيت ؟ ! »

واشتد اللجاج بينه وبين قازان وقطلو شاه وبولاي . وأتوا للوفد بطمام ، فأكلوا منه إلا ابن تيمية . فقيل له : ألا تأكل ؟ فقال : كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبت من أغنام الناس ،

(١) معارك فاصلة انتصر فيها جيش مصر الاسلامية العربية على التتار

وطبختموه مما قطعتم من أشجار الناس ؟ !

قيل وطلب إليه عاهل التتار اللداء فقال في دعائه : « اللهم إن كان عبدك محمود هذا إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا ، وليكون الدين كله لك ، فانصره وأيده وملكه البلاد والعباد . وإن قام رياء وسمعة وطلباً للدنيا ولتكون كلمته هي العليا ولينزل الإسلام وأهله فاخذله وززله ودمره واقطع دابره » قال هذا وقازان يؤمّن على كلامه . ولما خرج الوفد من حضرة العاهل التتري الفتى بمضمّن إليه قائلاً : كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك . والله لا نصحبك من هنا .

والغريب في أمره بعد هذا أن يتبرك به جند التتار ويلوذون به فيدخل دمشق وفي ركابه ثلاثمائة منهم !

كان وقتاً شديداً على الناس ، فتحت فيه السجون وخرج منها الأثرار بنهبون ، وامتلات القرى بالجنود ، وكثرت المصادر وراجت الأراجيف والإشاعات ؛ كل هذا والشيخ لا يبتفك برأس الوفود ويفك الأسرى ويواسي المرضى

وفي يوم من الأيام رحل جند التتار عن البلاد وانسحبوا إلى عقبه (دمر) ومنها غادروا المدينة تاركين بها أحد الأمراء من الذين انشعروا إليهم نائياً عنهم . كل هذا والقلمة صامدة وابن تيمية يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرياط

وأخيراً انكشفت الغمة بقدم عسكر مصر وفتح لهم باب الفرج مضافاً إليه باب النصر . وجاء عسكر الشام وعلى رأسه نائب دمشق جمال الدين الأفرم وكان دخولهم في تجمّل زائد الوصف .

٢ - ابن تيمية يهزم عسكر الشام في تقهورة

نفخت روح الجهاد في نفسه نشاطاً جملة يختلف عن غيره من شيوخ عصره ؛ فهو بمجرد عودة عسكر دمشق لا يتركهم بل يلازمهم في تنقلاتهم وفي ركابه خلق من أهل حوران يدعو إلى الهدى ؛ فمر ببمليك والبقاع وجبال الجرد والكستروان يخطف ويهدى ؛ فتاب كثيرون على يديه وحسن معقدهم ، وكان كثيرون لا يجرمون ما حرم الله ورسوله .

وحينما عاد أمير دمشق وقد رأى من عمل الشيخ وفتوته ما رأى أمر لأول مرة أن يتعلم الفقهاء الرمي بالنشاب وأن يستمدوا بتعلم الفروسية وطرق القتال المختلفة ليواجهوا العدو إن حضر ، ولا ريب في أن للشيخ يداً في ذلك الرأي السديد .